

النحو والمنطق في الأرشيف المعاصر والوسيط مبادئ من أجل إستوريوغرافيا نقدية

لزهارى ریحانى

جامعة الجزائر 2 - الجزائر

lazhari.rihani@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/12/08 تاريخ القبول: 2021/12/25

ملخص

طرح موضوع علاقة النحو العربي بالمنطق الأرسطي في شكل تساؤلين: هل يقام النحو على المنطق؟ وهل قام النحو العربي على المنطق؟ وأجيب عن السؤالين وفق استراتيجيتين مختلفتين اعتمدتا نصوصا محددة في قراءة علاقة النحو بالمنطق. لكن هذه النصوص تطرح مشكلات على مستوى التوثيق والتأويل، وهو ما ولّد لدينا الإحساس بالحاجة إلى ضرورة مقارنة موضوع هذه العلاقة وفق منهجية بديلة سمينها الاستراتيجية الهرمينوطيقية، تعتمد على مفاهيم وطرق تحليل محددة، من أجل تشكيل إستوريوغرافيا نقدية، بهدف تجاوز المشكلات الفيلولوجية والهرمينوطيقية التي نتجت عن التعامل مع تلك النصوص، والذي قدم لنا، على مدى عشرات السنين، موضوعا مغلوطا لم يُطرح في الثقافة العربية بالكيفية التي قدّم لنا بها؛ و ب) اقتراح قراءة جديدة لعلاقة النحو بالمنطق أكدنا فيها أن هذا الموضوع طُرح لدى الفلاسفة حصرا، وليس النحاة.

الكلمات المفتاحية:

النحو والمنطق - مناظرة - أركيولوجيا - إستوريوغرافيا - السيرافي ومثي

المؤلف المرسل: لزهارى ریحانى، البريد الإلكتروني: lazhari.rihani@univ-alger2.dz

Grammaire et logique dans l'archive médiévale et contemporaine: Éléments pour une historiographie critique

Résumé

Le rapport de grammaire à la logique a été exprimé sous forme de deux questions : la grammaire peut-elle être fondée sur la logique ? La grammaire arabe a-t-elle été fondée sur la logique ?

Les réponses aux deux questions furent données selon des stratégies particulièrement différentes, se fiant à des textes bien précis, pour en proposer une réponse.

Or, ces textes posent des problèmes, tant sur le plan de l'authentification que sur celui de l'interprétation ; ce qui a suscité la nécessité d'une nouvelle approche suivant une méthode qu'on a baptisée «stratégies herméneutiques» qui repose sur une méthode et des concepts bien définis issus de la méthodologie foucaldienne, afin de a) reconstituer une historiographie critique dans le but de surmonter les problèmes philologiques et herméneutiques qui peuvent être posées par ces textes et qui nous ont restitués, des décennies durant, un objet erroné qui n'a jamais été posé dans la culture arabe de la sorte ; puis b) proposer une nouvelle lecture de la relation grammaire/logique où nous avons émis l'hypothèse que ce sujet n'a été soulevé par les philosophes et non les grammairiens.

Mots-clés:

Grammaire et logique - Débat - Archéologie - Historiographie - As-Sīrāfi et Māttā

Grammar and logic in the medieval and contemporary archives: elements for a critical historiography

Abstract

The relation of grammar to logic has been expressed in two questions: can grammar be founded on logic? Was Arabic grammar founded on logic?

The answers to the two questions were given according to particularly different strategies, relying on very precise texts, to propose an answer.

However, these texts are problematic, both in terms of authentication and interpretation; which gave rise to the need for a new approach following a method that has been called “hermeneutical strategies” which is based on a well-defined method and concepts resulting from Foucauldian methodology, in order to a) reconstitute a critical historiography with the aim of to overcome the philological and hermeneutical problems which can be posed by these texts and which have restored to us, for decades, an erroneous object which has never been posed in Arab culture in this way; then b) propose a new reading of the grammar / logic relationship where we hypothesized that this subject was raised by philosophers and not grammarians.

Keywords:

Grammar and logic - Discussion - Archeology - Historiography - Archive - As-Sīrāfī & Māttā

مقدمة

يبين استعراض الإسطوريوغرافيا النحو-منطقية، أي مجموع ما كتب في علاقة النحو العربي بالمنطق الأرسطي كموضوع خطابي، سواء في الأرشيفين المعاصر أو الوسيط، أن طبيعة طرح الإشكال في تلك العلاقة يختلف بين الأرشيفين؛ فبينما طُرح في الأرشيف العربي الوسيط على شكل تساؤل: «هل يمكن أن يقام النحو إبستيمولوجيا على المنطق؟»، طرح الموضوع في الأرشيف المعاصر على شكل تساؤل: «هل قام النحو العربي إبستيمولوجيا على المنطق الأرسطي؟» (ريحاني، 2005؛ Elamrani-Jamal، 1983)، وهو التساؤل الذي حدد بشكل نهائي تقريبا طبيعة السؤال، ورسم حدود النقاش في موضوع هذه العلاقة، إضافة إلى أنه شكّل وعي قطاع واسع من الدارسين لإحدى أهم القضايا اللسانية المنطقية.

لقد قدمت لنا الممارسات الخطابية اللسانية والفلسفية، في البحوث والدراسات المعاصرة، مقاربتين أساسيتين في وصف علاقة النحو العربي بالمنطق الأرسطي. تستجيب هاتان المقاربتان لاستراتيجيتين مختلفتين تهيمنان على إسطوريوغرافيا المشكلة، ويمكن تصنيفهما إلى (أ) استراتيجيات تاريخية (نعتبر عنها فيما يلي بـ (ت)) تندرج ضمن تخصص «تاريخ العلوم» وتخضع لمقتضياته النظرية المعرفية والمنهجية، وأنتجت فرضيتين في تفسير أصول النحو العربي، تُعرف الأولى بـ (1) «الفرضية اليونانية»¹ (في) (Merx، 1891) ممتغيرها المتأخر كما بلوره فرستيغ² (Versteegh C.) (1977)، وهي التي تفترض أصولا يونانية، كنموذج تفسيري أعلى، للممارسة النظرية للنحو العربي، مفاهيم ومنهجاً، سواء تمّ ذلك عن طريق التأثير المباشر عبر انتشار التراث الهليني في المراكز العلمية والدينية المسيحية (Voie diffuse)، أو طريق التأثير غير المباشر عبر الترجمات المختلفة للكتب الفلسفية والمنطقية عن اللغة السريانية أساساً؛ كما أنتجت، من جهة ثانية، ما أطلقنا عليه (2) «الفرضية العربية» (فج) (ريحاني، 2005)، وهي التي تقول بالأصول العربية لتلك الممارسة.

أما ب) الاستراتيجيات الإبستيمولوجية (إ)، فقد اهتمت بطرح المشكلات الفلسفية

والإبستيمولوجية التي أفرزها النقاش بخصوص علاقة النحو بالمنطق والتي بلورت مختلف قضاياها بشكل نهائي تقريبا في الثقافة العربية، بداية من منتصف القرن التاسع (الثالث الهجري) إلى ما بعد القرن العاشر (الرابع الهجري)، وتعد مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتمى بن يونس، التي سنعود إليها لاحقا، أبرز أمثلة ذلك النقاش.

ورغم أننا نعثر في الأرشيف المعاصر على مثل هذا التوجه ضمن (إ)، مثل القراءة التأسيسية المتميزة التي قدمها العمراني جمال³ (1983)، أو محمد عابد الجابري (1993؛ 1993)⁴، أو من خلال تلك التي توزعت على الإستراتيجيتين (ت) و(إ) كما لدى عبد الرحمن الحاج صالح (Hadj-Salah، 1979)، إلا أنّ هناك مكوّنا أساسيا لم تهتم به هاته المحاولات على اختلاف منطلقاتها النظرية، وهو التناول النقدي للملفوظات ذاتها التي اعتمدت في التأسيس لمشكلة الصراع بين النحو والمنطق مثلما تمثّلها الأرشيفان الوسيط والمعاصر. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنّ هيمنة «إبستيمية الأصالة» على هذا الخطاب جعلت موضوعا كهذا غير جاهز لأن يطرح على بساط البحث، خصوصا وأنّ الفكر العربي في مختلف التخصصات التي مارس فيها فعاليته لمّا يكن جاهزا بعد لا ل طرح هذا النوع من الأسئلة ولا الإجابة عنها، كما أنّ المحاولات التي نتحدث عنها ظهرت في الفترة التي بادر فيها المفكرون العرب في رسم معالم بنية الفعالية الذهنية/العقلية والأنظمة الفكرية النظرية منها، مثلما يظهر ذلك لدى الجابري (1993) والحاج صالح (2012؛ 1979، Hadj-Salah)، والعملية، كما عند طه عبد الرحمن (1994)، المحددة لإنتاج المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية.

لذا ظهرت الحاجة إلى التناول النقدي للملفوظات التي تأسس عليها الزوج نحو/منطق في الأرشيفين المعاصر والعربي الوسيط، من خلال برنامج تعمل على تحقيقه استراتيجية ثالثة أطلقنا عليها مصطلح (ج) «الاستراتيجيات الأركيولوجية» (ك). ستكون هذه الاستراتيجيات مطالبة، في مرحلة أولى، بمعرفة الظروف التي أنتجت

الإستراتيجيتين (ت) و(إ)، من خلال كشف المستندات التي تتأسس عليها النظريات التي أنتجتها كل إستراتيجية، وهي بهذا المعنى إستراتيجية تكوينية؛ كما ستكون مطالبة، في مرحلة ثانية، بالدراسة الأركيولوجية لمشكلة العلاقة بين النحو والمنطق في الثقافة العربية، من خلال الكشف عن الإبتيمة التي تحكم طرحها فيها. نقسم هذه المرحلة الأخيرة إلى لحظتين منفصلتين ومتساويتين؛ سيُعتنى في الأولى بتتبع تأويل الملفوظات المؤسسة للمشكلة في الأرشيف الوسيط، وذلك بالعمل على القراءة التوثيقية والنقدية لتلك النصوص، إحكاما لانسجام الوثائق، واتساقا مع الخطابات التي تجاورها في التشكيلات الخطابية داخل الأرشيف العربي الوسيط، وهي الخطوة التي نعتبرها شرطا قريبا لكل تأويل؛ ثم محاولة اقتراح نموذج تفسيري جديد، من منظور أركيو-تأويلي، لعلاقة النحو بالمنطق من خلال إبراز التقاطعات والترابطات التي يمكن إقامتها بينها وبين خطابات تنتمي إلى سجلات مختلفة، كالسجلين الفلسفي والمنطقي.

1. تحديدات مفاهيمية ومنهجية: التناول الأركيولوجي للخطاب اللساني

يعرّف معجم الفلسفات الأوروبي (Cassin, 2004) «الإسطوريوغرافيا» (historiographie) في تقليد علم التاريخ الفرنسي بأنها «تاريخ التاريخ، [أو] الكتابة التاريخية التي موضوعها الخطاب التاريخي، [أو] طرق كتابة التاريخ منذ بداياته» (صفحة 563)؛ فمن كل ما له علاقة بالزمن الماضي بوجه عام، أصبح هذا المصطلح اسما لتحيين الموروث الببليوغرافي في خطاب المؤرخ، ليعني العلاقة بماضي التخصص⁵ (Anheim, 2012). إلا أنه بفعل تأثير التحليل السوسولوجي للعلوم الذي ميّز مدرسة كمبريدج ممثلة بكوينتن سكينر (Quentin Skinner) تُضاف إليه أعمال الألماني راينارت كوزليك (Reinhart Koselleck)، أصبحت «الإسطوريوغرافيا، التي طالما كرسّت اهتمامها لتاريخ الأفكار عن التاريخ، وتحليل المؤلفات التاريخية، [...] تهتم [...] بتحديد موقع الخطابات وممارسات المؤرخين في مجتمعاتهم، وربط كتاباتهم بسياقات، بصراعات أكاديمية، برهانات سياسية، وبعوالم مجتمعية»

(Offenstadt، 2011، صفحة 4). ورغم التحول الذي عرفه مفهوم هذا المصطلح منذ فولتير (Littre، 1957)، فإنه حقق نوعاً من الاستقرار الدلالي فيما بعد، بحيث ما زال يستعمل في معنى التاريخ الفكري (Anheim، 2012)، خصوصاً إذا علمنا بأن قائمة السجلات والتخصصات التي ستطأها الإسطوريوغرافيا ما تزال مفتوحة. ويعد البحث الأركيولوجي، بما هو منهجية جينولوجية، أحد أخصب أشكال الإسطوريوغرافيا في تحليل التاريخ، بفضل المفاهيم ومنهجيتي البحث والتحليل التي ترسخت في مجال تاريخ الأفكار في كتابات ميشال فوكو (Michel Foucault، 1963؛ Foucault، 1990) بداية من ستينات القرن الماضي، والتي عمل على بلورتها لاحقاً (Foucault، 1972). ولعل أهم منجز قدمه فوكو هو تحويله الفينومينولوجيا إلى إبستيمولوجيا، أي اعتبار أن «كل شيء معرفة» (Guenancia، 2000، الصفحات 306 - 307) وأنه «لا يوجد شيء قبل المعرفة» (Deleuze، 1986، صفحة 117). كما حوّل فوكو مركز الثقل في اهتمامه من الخطاب (discours) إلى الملفوظ (Foucault، 1972، énoncé)، وذلك في الفترة نفسها تقريباً التي أولى فيها بنفيسست (Benveniste) اهتمامه لما يسمى في فلسفة اللغة العادية «الخطاب»، مستبدلاً إياه بما أسماه «التلفظ» (énonciation)، من خلال إدراجه البعد الدلالي للغة⁶ في الوصف، خلافاً لسوسير الذي تمحور اهتمامه أساساً حول بعدها السيميائي (Recanati، 2019، § 17).

موضوع البحث الأركيولوجي هو الأرشيف. ولا بد هنا من التنصيص هنا على وحدة الأصل التأثيلي لكلمتي *archéologie* و *archive*، وهو الكلمة اليونانية *archeion* التي تعني «قديم» وليس «حفر» مثلما يوحي بذلك معناها الحرفي في ترجمته العربية. إنّ الهدف النهائي من البحث الأركيولوجي في المعرفة هو الكشف عن الإبستيمة، أي معرفة مجموع العلاقات التي تتشكل بين كل من العلوم والتشكلات الإبستيمولوجية والإيجابية (*positivité*) والممارسات الخطابية. وأول ما يتعين على مؤرخ الأفكار عمله، لرصد الإبستيمة، هو البحث عن الملفوظ، الذي

يعدُّ أهم المفاهيم التي يقوم عليها المنهج الأركيولوجي في المنظومة الفوكالدية⁷. والملفوظ في البحث الأركيولوجي ليس بنية لسانية أو منطقية دلالية أو مكونا تداوليا يحدد أو يسهم في تحديد الرسالة، وإنما هو وظيفة تتخلل جميع هذه العناصر (Foucault، 1972)، وتعدُّ العلامة الوحدة الأساس المشكّلة له. كما تقوم التشكيلات الخطابية (formations discursives) بتحمل وظيفة مبدأ تشتت (dis-persion) وتوزع (répartition) الملفوظات (Foucault، 1972)، وذلك عن طريق الأرشيف (archive) باعتباره قبلية تاريخية، أي ذلك «النظام الذي يحكم تشكل الملفوظات وتحولها» (Foucault، 1972، صفحة 179) في فترة ما.

ما يميز الملفوظ في البحث الأركيولوجي هو أنه «ينتمي دوماً إلى حقل تلفظي يجاوره بكيفية ما» (Foucault، 1972، صفحة 148)، كما أنّ هويته تتحدد بمجموعة من الظروف والحدود التي تفرضها عليه الملفوظات الأخرى التي ينتمي إليها، وبالمجال الذي بإمكانه أن يوظّف أو يُستعمل فيه، وكذلك بالدور والوظائف التي عليه أن يؤديها؛ فملفوظا «الأرض دائرية» أو «الأنواع تتطور»، مثلاً، لا يمكنهما أن يشكلا الملفوظين ذاتيهما قبل وبعد كوبرنيك (Copernic) أو دارون (Darwin)، تماماً مثل جملة «الأحلام تحقق الرغبات»، فإنها لا تعني الشيء ذاته لدى كلّ من أفلاطون (Platon) وفرويد (Foucault، 1972) (Freud). إنّ الملفوظات، وفق هذا المنظور، تشكل شبكة معقدة من العلاقات القائمة على التجاور؛ كما أنّ تأويلها -والتأويل هو منشأ المعرفة لدى فوكو وليس البرهان - يخضع لظروف إنتاجها. ولأنّ أركيولوجيا المعرفة تقدم تفسيراً لظهور العلوم والنظريات في مجال العلوم الاجتماعية بشكل خاص، توظف هذه النظرية مفهوماً مركزياً آخر وهو «الاستراتيجيات»⁸، وهو يعني الموضوعات والنظريات التي تنشأ عن تنظيمات معينة من المفاهيم، أو تجميع مُعين للموضوعات أو أنواع خاصة من الأقوال (= énoncés) التي تحقق درجة معينة من الاتساق والدقة والثبات، بالغاً ما بلغ المستوى الصوري لهذه الموضوعات وهذه النظريات (Foucault، 1972)، وهو

المفهوم الذي نستعمله على نطاق واسع في هذا البحث، واختبرنا كفايته لكشف الكيفية التي استشكل بها موضوع علاقة النحو والمنطق فيما أطلقنا عليه مصطلح «الأرشيف المعاصر» (ريحاني، 2005).

2. النحو والمنطق في الأرشيف اللساني-المنطقي الوسيط

لا يمكن وصف أرشيف ما من خلال أرشيف معاصر. والاستناد إلى القبليّة التاريخية التي تحكم نظام الملفوظات في الممارسات الخطابية التي نسميها في خطابنا «تراث»، إنما يهدف إلى تحقيق الاتساق⁹ بين هذه الملفوظات ضمن تلك الممارسات وبين الحقول التلفظية المجاورة، فوحده الاتساق بين هذه الكونات يمكننا من التوصل إلى تحديد هوية الملفوظات ومعرفة الوظائف التي تؤديها ضمن ظروف إنتاجها في الممارسات الخطابية المختلفة المشكّلة لهذا التراث. وإذًا، سيكون مصطلح «أرشيف» مرادفًا، إلى حد بعيد، لمصطلح «تراث»: ليس التراث باعتباره نصوصًا متفرقة تتوزع على مساحات واسعة من الممارسات الخطابية والسردية المختلفة، وإنما بوصفه نظام تشكل تلك الملفوظات في الممارسات الخطابية (pratiques discursives) والتشكلات الخطابية (formations discursives) التي تتخذ في خطابنا ذلك الاسم، والتي يعيننا منها هنا «التراث (الأرشيف، فيما يلي) اللساني-المنطقي».

أ. النحو والمنطق: ملفوظات الأرشيف الوسيط

ما ستتولاه هذه الدراسة إذًا، كأول إجراء منهجي يتعيّن علينا القيام به، هو توثيق المصادر النصية التي أتاحت لموضوع العلاقة بين النحو والمنطق الظهور على بساط البحث في الأرشيف المعاصر. ويمكن ترتيب هذه النصوص مثلما يتمثلها وعينا التاريخي كما يلي:

(1) نص الشافعي: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس» (السيوطي، [د.ت.].، صفحة 15)؛

(2) محاوره الكندي وأبي العباس بن المبرد (أو ربما ثعلب) التي أوردتها كل من عبد القاهر الجرجاني والسكاكي: «روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي

المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إنَّ عبد الله قائم، ثم يقولون: إنَّ عبد الله قائم. فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه؛ وقولهم: إنَّ عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل؛ وقولهم: إنَّ عبد الله قائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال: فما أحرار المتفلسف جوابا» (الجرجاني، 1981، صفحة 242؛ وانظر السكاكي، 1987، صفحة 171)؛

(3) نص الجاحظ: «ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم، لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء العرب لما فهموا أكثره؟» (الجاحظ، 1938، صفحة 90)؛

(4) نص ابن قتيبة: «ولو أن مؤلف حدِّ المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقهِ والفرائض والنحو لعدَّ نفسه من البُكم، أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أنَّ للعرب الحكمة وفصل الخطاب» (ابن قتيبة، 1985، صفحة 9)؛

(5) نص مناظرة أبي سعيد السيرافي ومثى بن يونس الذي أورده أبو حيان التوحيدي (1935).

لن نهتم في دراستنا بالنص (1)، رغم أهميته بالنسبة للأرشيف المعاصر بمختلف سجلاته (الجابري، 1993؛ النشار، 1989)، لأنه نص مجهول المصدر، ووُضع أساسا من أجل بناء الدعامة الدينية لموقف تشكل متأخرا من علوم الأوائل ممثلة بالمنطق، ملتصقا في ذلك سلطة الشافعي عبر سلسلة سند تدعم سلطتها استصدار فتوى شافعية بتحريم الاشتغال بهذا العلم (ريحاني، 2005). لن نلتفت أيضا للنص (2)، فهو يهتم بالجانب النحوي-الدلالي في ارتباطه بالملكوّن التداولي، ولا بالنصين (3) و (4) أيضا؛ فالنص (3) يتعلق بنقد لغة ترجمة بعض الكتب الفلسفية والمنطقية التي

يكون اطلع عليها الجاحظ؛ أما النص (4) فيضيف لاعتبارات اللغة والفصاحة في النص (3) اعتبارات دينية أخرى ليس من مهمة هذه الدراسة النظر فيها. سنولي اهتمامنا حصراً، إذًا، للنص (5)، وهو نص التوحيدي الذي يصور فيه مناظرة بين السيرافي ومثي.

ما يلفت النظر في هذه النصوص مجتمعة هو أنها تصوّر لنا وحدة موقف الراوي والرأي السائد في النص المروري، كما لو أنها «أعدت» للانخراط في رأي الراوي سلفاً، وهو ما يعزز موقفنا من مشكلة طرح العلاقة بين النحو والمنطق في الثقافة العربية (ريحاني، 2005) كما وُصفت في الأرشيف المعاصر، مما يحتم علينا إعادة النظر فيها، وذلك استناداً إلى إعادة تقييم الإسطوريوغرافيا النحو-منطقية.

ب. مناظرة السيرافي ومثي: مسعى صياغة إسطوريوغرافيا نقدية

إنّ الاهتمام بنص مناظرة السيرافي ومثي وبحث تداعياتها قد تم داخل (فع) من الاستراتيجية (ت)، ثم داخل الاستراتيجية (إ)، وأن الإشارة إليها في (في) ضمن (ت) إنما تم في سياق التأسيس لموقف عام في الدراسات الاستشراقية بدأ منتصف القرن التاسع عشر مع أرنست رينان (1858) (Ernest Renan) ثم مع إيغانتس غولدتسيهر (Ignác Goldziher) بدايات القرن العشرين، تجاه الزوج المفهومي عقل/إيمان في الحضارة العربية، على نحو ما بينه جورج مقدسي (-George Makdi 1979) (1991؛ si)، انطلاقاً من موقف سلبي من الحنبلية المعاصرة ممثلة بالوهابية، في مقابل الأحناف ممثلين بالأثراك، وإسقاط ذلك الموقف، الذي يصفه غوتاس (2003) بالسياسي والمضلل، على التراث الفكري العربي عموماً.

كما يحتل هذا النص موقعاً مركزياً في (إ)؛ ففي الدراسات اللسانية والفلسفية التي تؤرخ لعلاقة النحو والمنطق في الثقافة العربية (Versteegh K. , 1997, chap. 4) يقوم هذا النص فيها سندا أساسياً عند التأريخ لميلاد الجدل الفلسفي والإبستمولوجي، بل والإيديولوجي أحياناً، بين ممارستين خطابيتين متميزتين في الأرشيف العربي الوسيط، من خلال تصوير ما وُصف في الأرشيف المعاصر بالعلاقة

التصادمية التي كانت تربطهما.

والواقع أن هذا المصدر النصي، الذي يظهر ضمن ملفوظات ممارسات خطابية مختلفة في الأرشيف المعاصر، كما هو الأمر لدى روزنتال (1975) (Rosenthal) والعمرائي جمال (1983) والجابري (1993؛ 1993؛ 1991) وطه عبد الرحمن (1994) وغوتاس (2003) (Gutas) والحاج صالح (2007) وتوركر (2007) (Türker)، يطرح مجموعة من المشكلات على (أ) المستوى الفيلولوجي، حيث يعيق مشكل توثيق نص المناظرة اعتماده نصوصاً مرجعياً في الأرشيف الوسيط يؤرخ لهذا النوع من العلاقة؛ كما يطرح مشكلات على (ب) المستوى الهرمينوطيقي، حيث يحول بيننا وبين اعتماد تأويلاته في الأرشيف المعاصر الملفوظات التي تجاوره في الأرشيف الوسيط.

ج. مناظرة السيرافي ومتمى: معالم لتحليل فيلولوجي

1. نصوص التوحيدي من منظور فيلولوجي

تطرح الدراسات التوحيدية بخصوص كتاب المقابسات أسئلة هامة من منظور فيلولوجي تتناول صحة نصوصها ونسبتها إلى قائلها (الأعسم، 1980). يمكننا تمديد هذه الأسئلة نفسها لتشمل كتاب الإمتاع والمؤانسة (الإمتاع، فيما يلي) الذي تتعذر قراءته، كما سيتضح فيما بعد، بمعزل عن المقابسات. ولعل أول ما ينبغي ملاحظته هو أنّ تفرّد التوحيدي بنقل نصوص المقابسات ونصوص الإمتاع أمر لا يدعو إلى عدم الاطمئنان إليها أو التردد في قبولها، وإنما ردّها، رغم القيمة الأدبية واللسانية-الفلسفية التي تتمتع بها هذه النصوص. وبينما يشاركنا هذا الشك أكثر من باحث (أبو ديب، 1996؛ صمود، 1996)، يرى باحثون آخرون أن أبا حيان كان أميناً في روايته لهذه الأحاديث، وأنه لم يكن لديه أي داع لوضعها ونسبتها إلى غيره، إضافة إلى أنه نشر بعضها في حياة أصحابها (انظر مقدمة توفيق حسن، التوحيدي، 1970، ذكره الأعسم، 1980).

يلحق عبد الأمير الأعسم (1980) على رأي توفيق حسن يدافع عن صحة نسبة المقابسات إلى الذين رويت عنهم، قائلاً: «فكما أن تدخل التوحيدي في صياغة

الألفاظ حقيقة ظاهرة، فما المانع من صياغة الأفكار، أيضاً؟ فإذا كان التوحيدي هو المسؤول المباشر عن الأسلوب الذي يُظهر فلاسفة المقابسات وهم يفكرون، فإنّ من طبائع الأشياء أن يكون في الوقت ذاته مسؤولاً عن الطريقة التي عبّر بها عن أفكارهم» (صفحة 225، وانظر الصفحات 247، 267).

وفيما يخصنا، لا نرى جدوى من التساؤل حول تصرف التوحيدي في المقابسات من خلال ظواهر أسلوبية تميز طريقة الكتابة لديه، أو حتى جدوى التساؤل عن تجاوز حدود «التصرف» في المرويات إلى التدخل الحاسم في صياغتها. ثمّ إنّ لا بد من فهم كلمة «نشر» التي وردت في الحجة التي تدافع عن صحة تلك النصوص ونسبتها ليس بمعناها الحديث، الذي أصبح يعني، منذ بداية الطباعة الحديثة، تعدد النسخ والقراء -وهو المعنى الذي استعملت به هنا- وإنما فهمها بمعنى وضع المخطوط تحت تصرف النّسّاخ فحسب.

في مقابل ما سبق، سنحتفظ من آراء الباحثين برأي كمال أبو ديب (1996) الذي يعتبر فيه أنّ المجلسية أو «المجلس» هما الشكل التقني الأدائي للمعرفة داخل الإمتاع، وأنّ «مفهوم الليالي، تماماً كمفهوم المجلس، ابتكار تخييلي حاذق من أجل أن يتمّ فعل السرد الإبداعي على أجمل وجه يملك الفنان أن يحققه» (صفحة 212). وإذا كنا نتفق كامل الاتفاق مع هذا الرأي، إلا أنه -وإن صحّ- يبقى رأياً مبنياً على الحدس فقط، ينبغي تجنيد كل الوسائل في سبيل التحقق منه. ستتم هذه العملية عبر استخراج ما يمكن تسميته بـ «الكواشف» (marqueurs)، ونقصد بها الملفوظات التي تقوم بوظيفة الروابط، وهي التي تمكّن من إقامة علاقات تجاور مع ملفوظات أخرى تنتمي إلى ممارسات خطابية مختلفة داخل تشكيلة خطابية واحدة. هذا ما سنعمل على تبينه من خلال المعاينة الفيلولوجية لنص مناظرة أبي سعيد السيرافي ومثى بن يونس.

2. نص مناظرة السيرافي ومثى: معاينة فيلولوجية

ورد نص مناظرة أبي سعيد السيرافي لمثى بن يونس، التي يخبرنا التوحيدي (1935)،

صفحة 108) أنها حدثت سنة 326 هـ، في كتاب الإمتاع، وعنه نقل من جاء بعده¹⁰. أُلّف هذا الكتاب، بحسب أهم الدراسات (الأعسم، 1980؛ وانظر ريحاني، 2005)، بين سنتي 373 و375 هـ. كما بدأ التوحيدي بتجميع مادة المقابسات وتأليفه سنة 360 هـ، وامتدت به هذه العملية إلى ما بعد سنة 386 هـ.

يمكن أن نوجز الظروف التي كتب فيها التوحيدي نص المناظرة كما يلي: رويت المناظرة للتوحيدي من مصدرين، هما السيرافي والرماني. لم يعتمد رواية السيرافي لنص المناظرة لأنه كان يقول: «لم أحفظ على نفسي كل ما قلت، ولكن كتب ذلك القوم الذين حضروا في ألواح كانت معهم ومحابر أيضا، وقد اختل عليّ كثير منه» (التوحيدي، 1935، صفحة 128). أما الرماني، وهو أحد الحاضرين، فإنه مصدره الوحيد والمباشر؛ لذلك سنقرأ في آخر نص الليلة الثامنة: «هذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى الرماني الشيخ الصالح بإملائه» (صفحة 128).

كتب التوحيدي نص المناظرة استنادا إلى رواية الرماني حصرا، ليس لأنه مصدره الوحيد عنها فقط، وإنما لأنه مصدر موثوق. لكن تصديق الراوي يحتاج إلى تصديق الوسيط أيضا، وهو التوحيدي هنا، خصوصا وأنه مضت ثلاث وخمسون سنة على تلك المناظرة.

إذا كان الهدف من تنصيب الرواية، أي تحويلها من حالتها الشفهية إلى نص مكتوب، هو ترسيخها في نص يحمل اختلافاته (اختلاف رواياته) معه، من خلال الميثارواية التي تصاحب تثبيته في متن مكتوب، وهي التقنية الغالبة على طريقة التأليف في القرنين التاسع والعاشر، كما يظهر ذلك في نسخة الحسن بن سوار ويحيى بن عديّ في المنطق (أرسطو، 1980؛ ريحاني، 2005، صفحة 110)، فإنّ نص مناظرة السيرافي ومثى لا يخضع لهذا الاعتبار.

لقد كان توثيق النصوص تقليدا معروفا في تاريخ النقد الأدبي منذ القرن 8 م/ 2 هـ ولم يكن ما أنجزه ابن سلام الجمحي أو الجاحظ في توثيقهما للخبر الأدبي، والشعري بوجه خاص، سوى استمرار لهذا التقليد. كما أنّ المحاولات الأولى لضبط

الحديث قد بدأت وما يسمّى بكتب الصّحاح، التي وضعت كلها على امتداد القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري، كانت تُؤلف، علماً أنّ علم الحديث، كعلم مستقل، لم يتبلور إلا في النصف الأول من القرن العاشر مع أبي محمد الرامهرمرزي (879 / 360 م) الذي وضع أسس علم الجرح والتعديل. فإذا علمنا أنّ التوحيد، وهو أحد أكبر مثقفي عصره، غالباً ما يكون على اطلاع واسع على وسائل وطرق هذا العلم في التأكد من صحة نسبة الحديث إلى النبي، خصوصاً وأنه كان يعيش في بغداد، العاصمة السياسية والثقافية للدولة العباسية، على نسخ الكتب، أدركنا أنه من المؤكد أن يكون على اطلاع أيضاً على طرق كشف الانتحال، ويكون تبعاً لذلك قد طوّر القدرة على أن يخفي الانتحال وطرقه كذلك.

لنوجز الآن الكيفية التي يضبط بها علماء الحديث الخبر، فيقبلون أو يرّدون بها رواته.

يندرج منهج علماء الحديث داخل نظرية كبرى اقترح لها الجابري مصطلح نظرية الخبر البيانية (1993)، والتي يتركز البحث فيها حول محور الخبر ومدى صحته، ومن ثمّ مدى حُجّيته، كما يرى أنّ السلطة التي تتأسس عليها حجية الخبر هي الإجماع، سواء تعلق الأمر في ذلك بخبر التواتر، الذي يحمل سلطته معه، وهي التواتر، أو بخبر الآحاد الذي انصرف علماء الحديث بجهودهم إليه، يعينون صحته ودرجة هذه الصحة (الجابري، 1993).

يشترط علماء الحديث في الراوي، حتى تُقبل روايته، لدى تحمله الحديث وآدائه، أن يكون عدلاً، أي مسلماً، بالغاً، عاقلاً وسليماً من أسباب الفسق، وأن يكون ضابطاً لما يرويه. ومفهوم الضبط عند المحدّثين هو أن يقل الخطأ في الرواية (الأحدب، 1985). كما يُمتحن ضبط الراوي الذي تحققت فيه شروط الضبط، من بين ما يُمتحن به، بما يسمى مبدأ «الاعتبار»، وهو الذي يقوم على مقياس مقارنة رواية الراوي بروايات رواة آخرين معروفين بالضبط والإتقان هم أيضاً، فإن كانت روايته موافقة ولو من حيث المعنى لرواياتهم أو موافقة لها في الأغلب، وكانت المخالفة

نادرة، أقرّوا بكونه ضابطاً ثبتاً. لكنهم يشترطون في هذه الحالة «أن يكون الراوي عالماً بما يُحيل المعاني إن كان يحدث بالمعنى» (ابن الصلاح، [د. ت.]. الصفحات 95-96؛ ذكره الأحدب، 1985، صفحة 141).

غير أن جهود علماء الحديث لا تصب في محاولة اختبار صحة المتن، أساساً، مثلما يشرح ذلك عبد الفتاح كيليطو (1985)، «صحيح أنهم يكشفون في متن الحديث محالاً أو ما من شأنه أن يثبت الزيف والتدليس، ولكن مثل هذه الأحاديث لا تكون إلا مثالا على وضع غير محكم» (كيليطو، 1985، صفحة 48)، حيث أن «المزيّف الذي يُتقن عمله لا يترك أي أثر من شأنه أن يفضح أمره وهو يقضي على كل العلامات التي تدل على تدخله» (صفحة 48). لذلك سيتجه جُلّ جهدهم، في اختبار صحة الحديث - أي صحة نسبه إلى النبي -، نحو الرواة، حيث سيتكفل «علم الإسناد» بهذه المهمة. وللتأكد من صحة السند «يفحص علماء الحديث كل حلقة من سلسلته. وعندما يتأكدون أن كل راوٍ للحديث عرف من تقدمه، ينتقلون إلى مرحلة نقدية أخرى، وهي معرفة مدى عدالة الرواة على اختلافهم» (كيليطو، 1985، صفحة 49)، وفق مقاييس التعديل والتجريح التي ذكرنا. وعند توافر هذين الشرطين، يصبح الحديث مقبولاً، خصوصاً إذا أكدته سلسلة إسناد أخرى لا علاقة لها بالسلسلة الأولى، وهكذا «كلما تعددت الإسنادات ازدادت الثقة بالحديث» (كيليطو، 1985، صفحة 49).

وإذاً، فإنّ ربط المرويّات بالحدث يكون على أساس التواتر، أي بالتحقق من الحلقات المكونة لسلسلة/سلاسل السند الحاملة للخبر. ومثلما يكون الخبر (الديني أساساً) وسيطاً بين مصدره وبين الإيمان، يكون السند، في النص غير الديني، وسيطاً بين النص والمعرفة، وهذا تماماً ما حدث في الجانب المتعلق بالرواية في نص مناظرة السيرافي ومثى.

3. التوحيدي واستراتيجيات السرد: تحصين النص

هناك استراتيجيتان ستتواجهان إحداهما مقابل الأخرى: «تسعى الاستراتيجية

الأولى إلى كشف الانتحال وضبطه ومعرفة طرقه، بينما تسعى الاستراتيجية الثانية جهودها لإخفاء الانتحالات، وذلك بحرصها على معرفة الوسائل التي يمتلكها صاحب الاستراتيجية الأولى، لذلك فإنها تغلف أعمالها وتستترها، وتخفي الطرق التي تجعل النص المنحول مقبولاً» (كيليطو، 1985، صفحة 11).

إن صدقيّة نص التوحيدي تتوقف على مدى تحصينه له في منطقتين متماسّتين: تقع الأولى داخل النص، والثانية خارجه، أي تمكين كل من المتن والسند من الثبات أمام كل محاولة تهدف إلى اختبارهما. ولأن صحة المتن تُستمد من صحة السند فإن التوحيدي سيوجّه مختلف أشكال الاختبار المحتملة إلى الرماني، من جهة، وإلى الأشخاص الذين تقول الرواية إنهم حضروا المناظرة ودوّنوها، من جهة ثانية. لذا سنقرأ أسماءهم قبل نص المناظرة مباشرةً.

(1) تتشكل القائمة الاسمية للحضور من: «الخالدي، وابن الأخشاد، والكُتبي، وابن أبي بشر، وابن رباح، وابن كعب، وأبو عمرو قدامة بن جعفر، والزهري، وعلي بن عيسى الجراح، وابن فراس، وابن رشيد، وابن عبد العزيز الهاشمي، وابن يحيى العلوي، ورسول ابن طفح من مصر، والمرزباني صاحب آل سامان» (التوحيدي، 1935، صفحة 108)

كما نقرأ بعد نص المناظرة:

(2) «وأما علي بن عيسى [الرماني] فعالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق، وعيب به، إلا أنه لم يسلك طريق واضح المنطق، بل أفرد صناعة، وأظهر براعة، وقد عمل في القرآن كتاباً نفيساً، هذا مع الدين الثخين، والعقل الرزين» (التوحيدي، 1935، صفحة 133).

إنّ فحص الوضع السيميائي statut sémiotique لهذين النصين يجعلنا نكتشف أنهما يلعبان الدور التحصيني الذي تحدثنا عنه من قبل؛ فالنص الأخير مجموعة من الأوصاف التي خص بها التوحيدي شخصية الرماني، راوي نص المناظرة، وتتمثل في:

أنه (1) عالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق (لم يسلك طريق واضعه)

وأنه صاحب (2) دين ثخين

و (3) عقل رزين

إضافة إلى أنه (4) عمل في القرآن كتابا نفيسا

إذا تأملنا هذه الأوصاف وجدنا أنها تشكل تكافؤات دلالية مع الأوصاف نفسها التي يشترطها علماء الحديث في الراوي، والتي حددها، كما رأينا من قبل، في العدالة (الإسلام، البلوغ، العقل، والسلامة من أسباب الفسق) أو «خوارم المروءة» بتعبير البعض)، والضبط (قلة الخطأ في الرواية).

كما أننا إذا تأملنا ملاحظات التوحيدي على الرماني وشروط علماء الحديث في الراوي، وجدناها تؤلف التكافؤات التالية:

(1) العدالة ← «الدين الثخين، العقل الرزين»

(الإسلام، السلامة من أسباب الفسق، العقل، البلوغ)

(2) الضبط ← «عالي الرتبة في النحو واللغة...»

(قلة الخطأ في الرواية) + «عمل في القرآن كتابا نفيسا»

+ قائمة الحضور

إذا كانت التكافؤات التي أقمناها بين شروط «العدالة» وأوصاف الرماني واضحة، فإن التكافؤ الذي أقمناه بين شرط «الضبط» وبين (2) من أوصاف الرماني، وقائمة الحضور التي صدر بها نص المناظرة، يبقى غير واضح. فإذا تأملنا (2): ([الرماني] عالي الرتبة في النحو واللغة...)، واستحضرنا ما قلناه عن اشتراط علماء الحديث فيمن يروي «بالمعنى» من أن يكون «عالما بما يحيل المعاني»، أدركنا العلاقة التي أراد أن يقيمها التوحيدي بين هذا الوصف وذلك الشرط؛ فمن أعلم بما يحيل المعاني ومواقع الخطاب ودقائق الألفاظ والفرق بين المحتمل وغير المحتمل والظاهر والأظهر والعام والأعم من شخص تجتمع فيه صفة علو الرتبة في النحو واللغة

وعمله كتابا نفيسا في القرآن؟ ومع ذلك فإنّ هذا وحده لا يكفي، إذ لا بد أن تؤكد هذه الرواية رواية أو روايات أخرى لرواة آخرين.

هنا يأتي دور قائمة أسماء الأشخاص الذين حضروا «حدث» المناظرة، والذين قال عنهم السيرافي للتوحيدي: «كتب ذلك أقوام حضروا في ألواح كانت معهم ومحابر أيضا» (1935، صفحة 128)، فإذا ثبت أن رواياتهم للمناظرة موافقة لرواية الرماني، ولو من حيث المعنى، فستصبح روايته «متواترة» وتتأسس سلطتها بذلك على «إجماع» الأشخاص الحاضرين عليها. لكن واقع الحال أنه لا توجد، هنا أيضا، أية رواية أخرى غير تلك التي رواها التوحيدي عن الرماني. ومن هنا، فإن عدم وجود أي معترض على رواية الرماني تلك، وعدم ظهور أية رواية أخرى مختلفة، سيشكل إجماعا على صحتها. ولما كان الشاهد عند علماء الحديث سندا، والمستمع راويا بالضرورة، سيتشكل بالضرورة أيضا «الإجماع السكوتي» لهؤلاء الشهود على صحة رواية الرماني، وهو الهاجس الذي كان يسكن التوحيدي وحققه بالوسائل التي شرحنا. وهو ما يبعدهنا عن الافتراض بأنه نص «متخيّل»، حيث كلما ازدادت وسائل التدليس في النص زاد معها الاعتقاد لدينا بأننا فعلا أمام نص منحول، على الأقل ما تعلق منه بالملفوظات التي ينسبها التوحيدي إلى السيرافي.

د. مناظرة السيرافي ومتى: المقاربة الهرمينوطيقية

مناظرة السيرافي ومتى -ولترتيب العَلَمين هنا أهمّيته- عبارة عن نص سردي. والسرد، كما يوضح ذلك فوكو في الأوراق التي مهدت لكتابه حفريات المعرفة، «لا يبنى كلمات على أشياء أو أحداث، [إنما] يُعبر كلماته المنطوقة لخطابات أخرى تشكلت مسبقا وتم حفظها بصمت إلى غاية النطق بها أو سماعها» (Foucault, 2016, feuillet 10)؛ فلا تعارض من ثمّ بين السرد والخطاب (Foucault, 2016, feuillet 54). ونص المناظرة، من هذا المنطلق، ليست شيئا آخر سوى خطاب يحمل صوتين، يخص الأول علاقة النحو بالمنطق، والثاني المنطق والحكمة. لفهم هذه العلاقة ينبغي علينا استحضار اسم تردد ذكره في أربعة (7) مواضع

من نص الليلة الثامنة من الإمتاع، وهو وهب بن يعيش الرقي اليهودي. يورد التوحيدي (1935) هذا الاسم لدى رسم سياق ومرجعية المناظرة الفكرية، والمتمثل أساسا في وهو وجود طريق سهل ومختصر في تحصيل المعرفة بعيدا عن تكلف الفلاسفة وتطويلهم وتهويلهم. يروي التوحيدي على لسان وهب بن يعيش قوله: إنَّ هنا طريقا في إدراك الفلسفة مذلَّة مسلوكة مختصرة فسيحة، ليس على سالكها كدَّ ولا شقَّ في بلوغ ما يريد من الحكمة [...]؛ وإنَّ أصحابنا طوَّلوا وهوَّلوا وطرحوا الشوك في الطريق، ومنعوا من الجواز عليه غشا منهم وبخلا ولؤم طباع [...] اتخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشة ومكسبة، فصار ذلك كسور من حديد لطلاب الحكمة والمحَبِّين للحقيقة والمتصفحين لأثناء العالم. (الصفحات 104 - 105)

ويعلق التوحيدي (1935) على هذا الموقف قائلا: «قد عرفت مذهب ابن يعيش في هذا الباب [...]» وللذي قاله وأدَّعاه، وقصده وانتحاه، وجه واضح وحجة ظاهرة؛ وللذي قاله أصحابنا -أعني مخالفه- وجه أيضا وتأويل وللقولين أنصار وحماة، وحفظة ورعاة» (صفحة 104). هذه هي إذن الخلفية الفكرية للموقفين المتعارضين في نص المناظرة، حيث ينسجم موقف السيرافي فيها مع موقف وهب بن يعيش من المناظرة.

ما فعله التوحيدي هو إعاره ما فكَّر فيه من سمَّاهم التوحيدي «أصحابنا» -ويقصد مدرسة السجستاني- للسيرافي ممثلا للنحاة في تقريره لقضايا هي من صميم الانشغال المنطقي. وقد لاحظ العمراني جمال (Elamrani-Jamal، 1983) أن نص المناظرة تعرض للمسائل التي كان يفتقها من أبي سليمان السجستاني حول مسألة العلاقة بين النحو والمنطق. كما نرى، من جهتنا، أنَّ وضوح التقاطعات الصريحة لبعض ملفوظات نص المناظرة مع ملفوظات أخرى من المقابسات تظهر الصلة الثلاثية الموجودة بين السيرافي والتوحيدي والسجستاني، صلة أسهمت في تصوير تطوُّر إحدى أهم القضايا التي

كانت تشغل التفكير الفلسفي حصرا آنذاك، علاقة النحو بالمنطق.

لقد كان التوحيدي أحد الأعضاء البارزين في مدرسة أبي سليمان السجستاني، وهو «المسؤول المباشر عن الطريقة التي يبدو فيها الفلاسفة وهم يفكرون في مطاوي المقابسات» (الأعسم، 1980، صفحة 269)، وهو، بالتالي، المسؤول عن «الأسلوب الذي يظهر من خلاله التصور الذي نكوّنه عن أفكار كل منهم وفق الطريقة التي عبر هو عن أفكارهم بها» (الأعسم، 1980، صفحة 269). ولفهم العلاقة الملمغة التي كانت للتوحيدي مع السجستاني، سنستحضر ملاحظة جد حصرية للأعسم (1980) والتي تفيد أنّ شخصية السجستاني كانت مستحكمة في التوحيدي، وهو مرجعيته في رؤية الأشياء والحكم على الفلاسفة وتقريره للقضايا، مثلما تبينه بعض المقابسات (التوحيدي، المقابسات، 1970، انظر المقابسة 35).

وبالفعل، فمن القضايا التي قررها السجستاني ذلك الموقف من علاقة الزوجين لفظ/معنى، نحو/منطق. يبين ذلك نص بالغ الأهمية في المقابسة الثانية والعشرين هذا نصه:

قلت لأبي سليمان: إني أجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبية ومشابهة قريبة، وعلى هذا فما الفرق بينهما، وهل يتعاونان بالمناسبة، وهل يتفاوتان بالقرب منه؟ فقال: النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي، وجل نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي لها كالحلل والمعارض، وجلّ نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الإخلال بالمعاني التي هي لها كالحقائق والجواهر. (التوحيدي، 1970، الصفحات 169 - 170).

لنقرأ الآن نصا منسوباً للسيرافي: «إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفون بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكروه رفضوه؟» (التوحيدي، 1935، صفحة 110)، ولنربطه بمفهوم آخر للسيرافي: «النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية،

والمناطق نحو ولكنه مفهوم باللغة» (التوحيدى، 1935، صفحة 115) الذي ورد في نص المناظرة.

يفهم بعض الباحثين المعاصرين من الملفوظين الأخيرين مقولة عميقة جدا أكدتها البحوث والدراسات الحديثة والمعاصرة، تنص على أن لكل لغة منطقها، تماما كما للغة العربية منطقها الخاص (= النحو)، وأن منطق أرسطو، على هذا الأساس، مستمد من اللغة اليونانية (Hadj-Salah، 1979؛ 2007؛ عبد الرحمن، 1994). يقول الحاج صالح (2007):

إنَّ اللغويين العرب هم أول من تنبّه إلى أنَّ «المقولات» المنطقية التي أثبتتها أرسطو ما هي في الواقع إلا أجناسا ومعاني نحوية لغوية استخرجها أرسطو من صميم اللغة اليونانية. وهذه الحقيقة قد كشف عنها وبرهن عليها الكثير من اللغويين والمناطقة الغربيين. (الصفحات 129 - 130)

في الواقع ليس ملفوظي «النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي» و«النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة» علاقة بنوع القراءة التي تُحمّلها إياهما البحوث والدراسات المعاصرة، كما أشرنا إلى ذلك. فالذي ينبغي أن نفهمه منهما هو التالي: يُطبق المنطق على المعقولات تماما كما يطبق النحو على الألفاظ (= اللغة)، وهو بالضبط ما يفهم من تقرير السجستاني الذي أوردناه فوق: «النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي».

إنَّ ظروف إنتاج هذه الملفوظات مجتمعة، في الممارسة الخطابية التي تنتمي إلى السجلين اللساني والفلسفي في الأرشيف الوسيط، ما كان يمكن أن تنتج ملفوظا يتحمّل المدلولات التي حمّلتها إياها القراءات المعاصرة، فما كانت ظروف إنتاج تلك الملفوظات لتسمح بأيّ نوع من الربط بين مقولات أرسطو واللغة اليونانية، خصوصا وأن معرفة هذه اللغة كانت حكرا على السريان، مترجمي منطق أرسطو إلى العربية على امتداد قرن من الزمن، في عملية منظمة للترجمة بدأت بتدري وانتهت مع متّى بن يونس.

إن مشكلة العلاقة بين النحو والمنطق طرحت لدى الفلاسفة حصرا، ولم تطرح في يوم من الأيام عند النحاة. كل ما فعله التوحيدى، هو نقل الاهتمام بها لدى الفلاسفة، مثلما تجلّت عند أبي سليمان السجستاني -وهو استمرار للاتجاه الذي بدأه الفارابي من قبل- وتحويله إلى النحاة ممثلين بأبي سعيد السيرافي. إن نصّ الفارابي (ريحاني، 2005) : «إنّ نسبة صناعة النحو إلى الألفاظ هي كنسبة صناعة المنطق إلى المعقولات، فهذا تشابه ما بينهما. فإما أن تكون إحدهما هي الأخرى، أو أن تكون إحدهما داخلة في الأخرى فلا» (الفارابي، 1992، الصفحات 260 - 261) إنما هو استجابة ناقدة ورافضة لمحاولات النحاة الأولى مزج مفاهيم المنطق بالنحو.

خلاصة ونتائج البحث

أتاحت المنهجية الأركيولوجية ومفاهيمها التي اعتمدنا مقارنة جديدة لموضوع العلاقة بين النحو والمنطق فيما أسميناه «الأرشيف المعاصر» المؤسس لمشكلة العلاقة بين النحو والمنطق في «الأرشيف العربي الوسيط». وقد بينت هذه الدراسة أن طبيعة طرح الموضوع لا تختلف في الأرشيفين فقط، وإنما طرحت بطريقة خاطئة. فبينما أنّ النصوص التي اعتمدت في بناء موضوع هذه العلاقة تعاني من مشكلات توثيقية حاولنا تجاوزها بما أسميناه «الأسطوريوغرافيا النقدية». فبينما أنّ قضية العلاقة بين النحو والمنطق طرحت لدى الفلاسفة حصرا ولم تطرح في يوم من الأيام عند النحاة.

لذلك قمنا بدراسة نص مناظرة السيرافي ومثى نظرا للقيمة التي يتمتع بها لدى الدارسين باعتباره نصا مرجعيا في كل دراسة تبحث علاقة النحو العربي بمنطق أرسطو أو تؤرخ لها، واقترحنا قراءة جديدة لها تتجانس مع ملفوظات الممارسات الخطابية والسردية في الأرشيف الوسيط. سيترتب على نتائج هذه الدراسة إعادة النظر في تاريخ العلاقة بين النحو العربي والمنطق الأرسطي، فقد بني هذا التاريخ على مسلّمة تفيد بأنه حين تعرض المنطق لانتقادات الفقهاء والنحاة اجتهد الفلاسفة في معالجة العلاقة التي تجمعهما، محاولين الدفاع عن المنطق من خلال

تبيين إما حدود اختصاص كل منهما، مثلما هو الأمر عند الفارابي، أو بيان عدم جدوى النحو، كما لدى يحيى بن عديّ، حيث تكشف بعض نصوص الفارابي أنه كان يرفض مزج المنطق بالنحو.

الإحالات

1- تعود جذور هذه الفرضية إلى المستشرق الألماني أدالبرت ميركس Adalbert Merx. تحدد هذه الفرضية المصطلحات والمفاهيم النحوية العربية ذات الأصول الأرسطية فيما يلي: التقسيم الثلاثي للكلام؛ مفهوم الأحداث؛ مفهوم الصرف؛ وجود مفهوم الخبر وغياب مفهوم الموضوع (Sujet)؛ أصل كلمة «جنس»؛ معنى الظرف؛ أسماء الأحكام الإعرابية؛ معنى الإعراب؛ وأخيراً، التمييز بين الأزمنة الثلاثة (Merx، 1891، الصفحات 18-24).

2- يمدد كورنيليس هرنيكوس ماريًا فرستيخ (1977) (C. H. M. Versteegh)، المعروف أيضاً بـ Kees، تأثير النحو العربي إلى المنطق والعلم اليوناني، عموماً، ممثلاً بكتاب جالينوس.

3- ننوّه هنا بالعمل الذي قدمه العمراني جمال (1983) باعتباره اللبنة الأولى لذلك المجهود الفكري الذي اضطلع بمهمة الدراسة الأركيولوجية والإستيمولوجية في تناول علاقة المنطق الأرسطي والنحو العربي في الثقافة العربية، وذلك بوضعه في إطار النقاش العلمي والفلسفي بين علمين متميزين ومستقلين بداية من القرن التاسع (الثالث الهجري)؛ كما ننوّه بأحد أهمّ من يمثل هذه الاستراتيجية، وهو محمد عابد الجابري، الذي يتناول موضوع العلاقة بين النحو والمنطق في الثقافة العربية في إطار التأريخ للتصادم الذي يكون حدث بين نظامين معرفيين مكتملين، النظام المعرفي البياني - ممثلاً بعلوم النحو واللغة والبلاغة والفقه والكلام- والنظام المعرفي البرهاني - ممثلاً بفلسفة ومنطق أرسطو (الجابري، 1993 ب، انظر الباب 1 و 2؛ 1993 أ). أما عبد الرحمن الحاج صالح فقد عمل على تأصيل الممارسة النظرية للنحو العربي انطلاقاً من إعادة قراءة التراث اللساني العربي واستنباط الأسس الإستيمولوجية، المفهومية والإجرائية المنهجية، التي تحكم تلك الممارسة، والتأكيد على خصوصيتها وتفردتها.

4- نعثر لدى الجابري على تطبيق لمفهوم الإستيمية الذي يتخذ لديه مصطلح «النظام المعرفي»، لكننا نرى أنه مختلف عن مفهوم الإستيمية مثلما نظر له فوكو من خلال تطبيقه في مجال التأريخ الأركيولوجي للجنون مثلاً، أو للاقتصاد أو اللسانيات أو البيولوجيا. إن مفهوم «النظام المعرفي» لدى الجابري إنما هو متغيّر معدّل ومطوّر عن مفهوم الإستيمية الفوكالدي تم اللجوء فيه إلى مصدر سابق في الفكر الفرنسي، كما يشير هو إلى ذلك، وهو أندريه لالاند

5- يبدو ذلك واضحا في اللغة الفرنسية التي تستعمل مصطلحي *Histoire* و *historiographie*. أما في الممارسة التاريخية الإنجليزية فالأمر يختلف، إذ يستعمل مصطلح *History of historiography* بينما تميز اللغة الإيطالية بين *storia* التي تعني التاريخ كماض، وبين *storiografia* الذي غالبا ما يعني مجمل عمل المؤرخين ماضيا وحاضرا. أما المؤرخون الألمان فيستعملون الزوج *Historie/Geschichte* كما يستعملون *Historiographiegeschichte* أو *Forschungsgeschichte* مع استخدامهم مصطلح *Geschichte der Geschichtsschreibung* «تاريخ البحث» في معنى *Historiographie* الفرنسي. لكن يبدو أن ما يزيل اللبس لديهم استعمالهم *Forschungsgeschichte* مع الإضافة (Anheim، 2012)، بينما تخصص الألمانية مصطلح *Historik* للدلالة على نظرية ومنهجية الكتابة التاريخية، وهو مصطلح ليس له في اللغات الأخرى مرادف (Hartog , Werner 2004)

6- دعا بنفنيست، في مقالات متعددة له (1974؛ 1966)، إلى لسانيات جديدة و متميزة، تتمثل في نظرية التلفظ (*théorie de l'énonciation*)، والتي ألهمت التيار التداولي الفرنسي في السبعينيات الذي يعد أ. دو كرو (O. Ducrot) أبرز ممثليه (Recanati، 2019). لقد أرسى بنفنيست نوعا من التكافؤ بين الكلام والتلفظ، وهو ما يترتب عنه تطابق الخطاب والملفوظ (Bilba، 2014). وفيما يخص استعمال مصطلحي «لغة» و «لسان» لترجمة المصطلحين السوسوريين *langage* و *langue*، فإننا ننبه إلى الإشكال الذي ولدته هذه الترجمة على مستوى تمثيل المفهومين وترجمة مصطلحيهما، خصوصا إذا علمنا أن لـ *langue* و *langage* جذرا واحدا وهو *lingua*، وهي الخاصية التي يفتقر إليها المصطلحان العريبان، مما ولد إشكالا حقيقيا في تمثيل مفهوم كل منهما، لدى الدارسين والمتعلمين على السواء.

7- كان تعريف «الملفوظ» هو الهدف من تأليف حفريات المعرفة، وهو الكتاب الذي جاء ليضبط الأسس المنهجية والمفاهيم المفصلية التي بنى عليها تحليلاته وأعلن عنها في كتبه السابقة، رغم غياب مفهوم «الإبستيمية» (*épistémè*) المركزي لديه، من الحقل المفهومي لهذا الكتاب.

8- ينتمي مصطلح «استراتيجية» إلى مجال العلوم الحربية، للدلالة على الجزء منها الذي يتناول تسيير الحرب والعمليات الحربية، ويعرفه فوكو، الذي وظفه في مجال تاريخ الأفكار، بأنه «اختبار الوسائل المستعملة للوصول إلى غاية، حيث يتعلق الأمر بالعقلانية الموظفة من أجل بلوغ الهدف» (Dreyfus & Rabinow, 1984, p. 318).

9- تعبر إيرينا بيلرت I. Bellert عن الاتساق النصي بهذا القانون : إنه :«متوالية من الجمل: م1، م2.... من حيث التأويل الدلالي لكل جملة جت (كل $2 \geq ت \geq ن$) متعلق بتأويل المتوالية م1.... مت = 1 (1970, p. 335)»

10- يتمثل مخيال الدارسين نص مناظرة السيرافي لمّتى بشكل جعل بعضهم يتصور أنها حدث تاريخي «حضرها وسجلها أبو حيان التوحيدي» (يعقوبي، 1992، صفحة 24)؛ أو أن أبا حيان التوحيدي دوّن نص مناظرة السيرافي ومّتى «مرتين : الأولى في صيغة مقتضبة في المقابسات والثانية في صيغة مّطولة في الإمتاع والمؤانسة» (حنفي، 1995، صفحة 248)، رغم أن تلك الصيغة المقتضبة، والتي جاءت في المقابسات، ليست سوى تقديم صدر به حسن السندوبي نشرته لهذا الكتاب سنة 1929، وأن هذه الصيغة هي التي نشرها مرجليوث سنة 1905 وأعاد تنقيحها ضمن نشرته لـ معجم الأدباء لياقوت الحموي، وقد اعتمد محققا الإمتاع تلك الصيغة للتأكد من النص الكامل.

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربيّة:

- ابن الصلاح. (د.ت). علوم الحديث.
- ابن قتيبة. (1985). أدب الكاتب. (تحرير محمد الدالي) بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن المقفع، عبد الله. (1978). المنطق. محمد تقى دانشپزوه (محرر) تهران: انجمن شاهنشاهی فلسفه ایران.
- الأزهرى، ریحاني. (2005). النحو العربي والمنطق الأرسطي: دراسة حفرية تداولية. الجزائر: منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين
- الأزهرى، ریحاني. (2018). البنية اللغوية للأنطولوجيا في العربية.
- أبو حيان، التوحيدى. (1935). الإمتاع والمؤانسة. أحمد أمين و أحمد الزين (محررون). دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابو ديب، كمال. (1996). المجلسيات والمقامات والأدب العجائبي. فصول، 14(4).
- أبو ديب، كمال. (1996). المجلسيات والمقامات والأدب العجائبي. فصول، 14(4)، ص-ص 177 - 187.
- أرسطو. (1980). منطق أرسطو. (مج 1). عبد الرحمن بدوي (محرر). بيروت: دار القلم.
- الأحذب، خلدون. (1985). أسباب اختلاف المحدثين (مج 1). جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع.
- الأعمش، عبد الأمير. (1980). أبو حيان التوحيدى في كتاب المقابسات. بيروت: دار الأندلس.
- التوحيدى، أبو حيان. (1970). المقابسات. محمد توفيق حسين (محرر) بغداد: مطبعة الإرشاد.
- التوحيدى، أبو حيان. (1992). المقابسات (ط 2). حسن السندوبى (محرر) الكويت؛ القاهرة: دار سعاد الصباح.
- الجاحظ. (1938). كتاب الحيوان. القاهرة: مطبعة الحلبي.
- الجابري، محمد عابد. (1991). التراث والحداثة: دراسات ومناقشات. بيروت/الدار

البيضاء: المركز الثقافي العربي.

- الجابري، محمد عابد. (1993أ). بنية العقل العربي. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- الجابري، محمد عابد. (1993ب). تكوين العقل العربي. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- الجرجاني، عبد القاهر. (1981). دلائل الإعجاز في علم المعاني. رشيد رضا (محرر) بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.
- الحاج صالح، عبد الرحمن. (2007). بحوث ودراسات في اللسانيات العربية. (مج 1). الجزائر: موفم للنشر.
- الحاج صالح، عبد الرحمن. (2012). منطق العرب في علوم اللسان. الجزائر: موفم للنشر.
- حنفي، حسن. (1995). جدل الواقد والموروث. فصول، 14(3).
- ديمتري، غوتاس. (2003). الفكر اليوناني والثقافة العربية. نقولا زياده (مترجم) بيروت: المنظمة العربية للترجمة؛ مركز دراسات الوحدة العربية.
- السكاكي، محمد بن علي. (1987). مفتاح العلوم. نعيم زرزور (المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.
- السيوطي، جلال الدين. (د. ت.). صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام. بيروت: دار الكتب العلمية.
- صمود، حمادي. (1996). المشافهة والكتابة: مدخل إلى دراسة منطق التأليف في الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي. فصول، 14(4).
- عبد الرحمن، طه. (1994). تجديد المنهج في تقويم التراث. بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- الفارابي، أبو نصر. (1992). الأعمال الكاملة. (مج 1). جعفر آل ياسين (محرر) بيروت: دار المناهل للطباعة والنشر.
- كيليطو، عبد الفتاح. (1985). الكتابة والتناسخ. عبد السلام بن عبد العالي (مترجم) بيروت؛ الدار البيضاء: دار التنوير للطباعة والنشر؛ المركز الثقافي العربي.

- محمد بن زكريا الرازي، أبو بكر. (1986). الطب الروحاني. ماجد فخري (محرر). بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.
- موافي، عثمان. (1984). منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي. (ط 3). الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- النشار، علي سامي. (1989). مناهج التفكير عند مفكري الإسلام.
- يعقوبي، محمود. (1992). إبن تيمية والمنطق الأرسطي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

باللغة الأجنبية:

- Adalbert Merx. (1891). l'origine de la grammaire arabe. Bulletin de l'Institut Egyptien 18-24.
- Anheim, É. (2012). L'historiographie est-elle une forme d'histoire intellectuelle? La controverse de 1934 entre Lucien Febvre et Henri Jassemin. Revue d'histoire moderne contemporaine, (5), 105-130.
- Foucault, M. (2016, Janvier). Homère, Les récits, L'éducation, Les discours. Nouvelle revue française, pp. 103-150.
- Bellert, I. (1970). On a Condition of the Coherence of Texts. Semiotica, 2(4), 335-363. Retrieved from <https://academic.microsoft.com/paper/2095464485>
- Benveniste, É.. (1966) Problèmes de linguistique générale. Paris : Gallimard.
- Benveniste, É.. (1974). Problèmes de linguistique générale.(ed.2).Paris : Gallimard
- Bilba, C.. (2014).Les enjeux stratégiques de la théorie du discours chez Foucault. Meta: Research in Hermeneutics, Phenomenology, and Practical Philosophy, 6 (2), 526- 550
- . Cassin, B. (Ed.). (2004). Vocabulaire européen des philosophies : dic-

tionnaire des intraduisibles .Récupéré sur: <https://academic.microsoft.com/paper/358114937>

- CHM Versteegh. (1977). Greek elements in arabic linguistic thinking. Leiden: E.-J. Brill.
- Deleuze, G.. (1986) Foucault. Paris: Minuit.
- Dreyfus, H. L., Foucault, M., & Rabinow, P. (1984). Michel Foucault, Un Parcours Philosophique au-Delà de l'Objectivité Et de la Subjectivité. Récupéré sur: <https://academic.microsoft.com/paper/1554400304>
- Elamrani-Jamal, A., & Elamrani-Jamal, A. (1983). Logique aristotélienne et grammaire arabe : étude et documents. Paris: Vrin.
- Foucault Michel. (1963). Histoire de la folie à l'âge classique. Mln, 78(1) 85 Récupéré sur:<https://academic.microsoft.com/paper/2115938473>
- Foucault Michel. (1972). L'archéologie du savoir.(ed.02). Paris : Gallimard.
- Foucault, M. (1990). Les mots et les choses: une archéologie des sciences humaines. Paris: Gallimard.
- François H. Michael Werner. (2004). Le vocabulaire européen des philosophies. Cassin, B. (Ed.). Paris : Seuil Robert.
- George, M. (1979). The Hanbali School and Sufism. Boletin de la Association Esplgnola d' Orientalisatias, pp. 115-126
- Guenancia, P. (2000). L'immédiat et son reste. K.-O. Apel, J. Barnes, E. Bellone, C. Chevalley, G. A. Cohen, A. de Libera, . . . D. Widlöcher, Un siècle de philosophie, 1900-2000. Paris: Gallimard/Centre pompidou.
- Hadj-Salah, A. (1979) . Linguistique arabe et linguistique générale : essai d'épistémologie et de méthodologie du 'ilm al-arabiyya.
- Littré, É. (1957). Dictionnaire de la langue française. (ed.4). Paris: Pau-

- vret.
- Makdisi, G. (1991). Religion, law and learning in classical Islam. Routledge.
 - Makdisi, G. (1991). Religion, law and learning in classical Islam. Retrieved from: <https://academic.microsoft.com/paper/574104078>
 - Muhsin, M. (1970). Logic and grammar in classical Islam. E. G. Von Grunebaum. Logic in Classical Islam Culture. Wiesbaden.
 - Muhsin, M. (2017). Language and Logic in Classical Islam. 135-168. Retrieved from: <https://academic.microsoft.com/paper/3163465771>
 - Offenstadt Nicolas. (2011). L'historiographie. Paris: PUF.
 - Récanati, F. (2020). Langage, discours, pensée: Leçon inaugurale prononcée le jeudi 12 décembre 2019. Collège de France.
 - Renan, E. (1858). De l'origine du langage. (éd. 2). Paris: Michel Lévy Frères, Libraires-éditeurs.
 - Rosenthal Franz. (1975). The classical heritage in Islam .Récupéré sur: <https://academic.microsoft.com/paper/2106943577>.
 - Serrus Charles. (1933). Le parallélisme logico-grammatical. Paris: Alcan.
 - Türker, S. (2007). The Arabico-Islamic background of Al-Fārābī's logic. History and Philosophy of Logic, 28(3), 183255-. Récupéré sur <https://academic.microsoft.com/paper/2026966603>
 - Versteegh, K. (1997). Landmarks in Linguistic Thought III: The Arabic Linguistic Tradition. Routledge.